سَعِيدٌ وَالحَمَامُ الزَّاجِلُ

الأَخْضَرْ بَنْ هَدُّوقَة

سَعِيدٌ
وَالْحَمَامُ الزَّاجِلُ

قصة بقلم وريشة: الأخضر بن هدُّوقة

دار الهدى
عين مليلة * الجزائر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع القانوني 646 /97 عين مليلة * الجزائر

6 - 026 - 60 - 9961 تدمك

© دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية: ص.ب 193 عين مليلة * الجزائر

هاتف: 44.95.47 (04) فاكس: 44.94.18 (04)

سعيدٌ والطَّبيعةُ وَحُبُّ الْبَحْثِ

سَعِيدٌ تِلْمِيذٌ يَدْرُسُ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ أَسَاسِي فِي إِحْدَى الْمَدَارِسِ بِالمَدِينَةِ، وَسِيمُ الطَّلْعَةِ، رَشِيقُ الْقَامَةِ، خَفِيفُ الْحَرَكَةِ، ذَكِيٌّ، سَرِيعُ الْفَهْمِ، مُولَعٌ بِحُبِّ الْبَحْثِ وَالاِطِّلاَعِ.

نَشَأَ فِي أُسْرَةٍ تَتَكَوَّنُ مِنَ الأَبِ وَالأُمِّ، وَثَلاَثَةِ إِخْوَةٍ هُوَ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا، يَسْكُنُ فِي بَيْتٍ مُتَوَاضِعٍ يَقَعُ بِجَانِبِ الْمَدِينَةِ.

طَبِيعَتُهُ الإِنْسَانِيَةُ جَعَلَتْهُ يَعْشَقُ الطَّبِيعَةَ بِجِبَالِهَا الشَّامِخَةِ، وَهَوَائِهَا النَّقِيِّ المُنْعِشِ، بِوِدْيَانِهَا الْمُلْتَوِيَةِ الْحَلَزُونِيَّةِ، وَخَرِيرِ مِيَاهِهَا الْعَذْبَةِ، بِسُهُولِهَا الْخَضْرَاءِ الشَّاسِعَةِ وَحَيَوَانَاتِهَا الْبَرِّيَّةِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ، بِغَابَاتِهَا الْعَذْرَاءِ وَزَقْزَقَةِ عَصَافِيرِهَا الْمُزَرْكَشَةِ الْمَلاَئِكِيَّةِ.

لَقَدْ أَصْبَحَتِ الطَّبِيعَةُ جُزْءاً لاَ يَتَجَزَّأُ مِنْهُ، فَهِيَ الْهَوَاءُ، وَهِيَ الْحَيَاةُ، وَهِيَ الْغِذَاءُ، وَهِيَ كُلُّ شَيْءٍ مُهِمٍّ عِنْدَهُ.

حَمَلَ هَذِهِ الصِّفَةَ الرَّائِعَةَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، تَجِدُهُ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ أَصْدِقَائِهِ فِي السَّاحَةِ كَعُصْفُورٍ رَشِيقٍ جَمِيلٍ، جَذَّابٍ، تَارَةً يَسِيرُ بِخُطًى مُتَبَاطِئَةٍ يَتَبَادَلُ أَثْنَاءَهَا أَطْرَافَ الْحَدِيثِ فِي شَتَّى الْمَوْضُوعَاتِ مَعَ

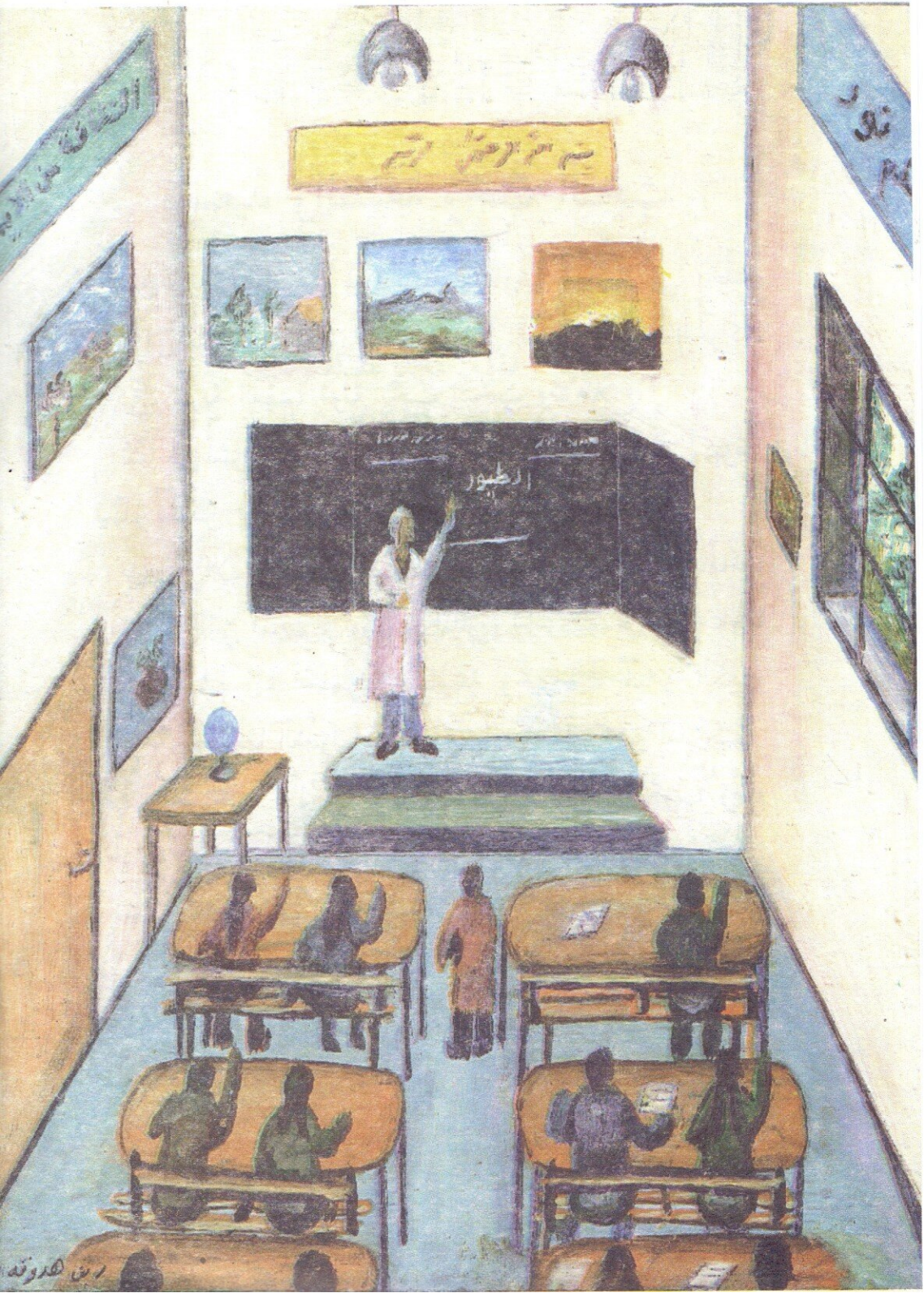
الطيور

رِفَاقِهِ، وَتَارَةً يَجْلِسُ بِأَحَدِ أَرْكَانِ الْقِسْمِ لِيُسَاعِدَ بَعْضًا مِنْهُمْ فِي إِيضَاحِ بَعْضِ الدُّرُوسِ الصَّعْبَةِ. فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ لاَ تَسْمَعُ مِنْ كَلاَمِهِ إِلاَّ هَمَسَاتٍ مُنْخَفِضَةٍ كَأَنَّهُ حَكِيمٌ أَوْ خَبِيرٌ مُنْهَمِكٌ فِي حَلِّ مَشَاكِلِ الْعَالَمِ.

وَإِذَا دَقَّ الْجَرَسُ مُعْلِنًا عَنِ الدُّخُولِ إِلَى الأَقْسَامِ تَرَاهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى الصَّفِّ بِكُلِّ إِجْلاَلٍ وَتَقْدِيرٍ، وَمَا إِنْ يَقِفُ مُنْتَصِبًا كَالْجُنْدِيِّ بِمِئْزَرِهِ الأَبْيَضِ وَبِمِحْفَظَتِهِ السَّوْدَاءِ مُصَوِّبًا نَظَرَاتِهِ الْحَادَّةِ فِي اتِّجَاهِ الْمُعَلِّمِ إِلاَّ وَعَمَّتْ السَّكِينَةُ الصَّفَّ وَكَأَنَّ السَّاحَةَ أَصْبَحَتْ شَاغِرَةً مِنْ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَمَنْ يُخَالِفُ هَذَا الاِنْضِبَاطَ الْعَسْكَرِيَّ يُوَبَّخُهُ أَوْ يُعَاتَبُهُ عَنْ هَذِهِ الْمُخَالَفَةِ.

فِي القِسْمِ تَرَاهُ كَالْفَرَاشَةِ الشَّغَّالَةِ لاَ يَهْدَأُ أَبَدًا أَثْنَاءَ مُنَاقَشَةِ الدَّرْسِ، كَانَ يُقْلِقُ مُعَلِّمَهُ بِطَرْحِ بَعْضِ الاِسْتِفْسَارَاتِ حَوْلَ نُقْطَةٍ مُبْهَمَةٍ تَخُصُّ هَذَا الدَّرْسَ، وَلَكِنَّ مُعَلِّمَهُ كَانَ يَشْعُرُ بِافْتِخَارٍ وَاعْتِزَازٍ، بَلْ كَانَ يُشَجِّعُهُ عَلَى حُبِّ الْبَحْثِ وَالاِطِّلاَعِ وَتَقْيِيمِ النَّتَائِجِ.

فَشَبَّ سَعِيدٌ عَلَى سِيرَةِ مُعَلِّمِهِ، وَأَصْبَحَ جُزْءاً لاَ يَتَجَزَّأُ مِنْ صُورَتِهِ، بَلْ جُزْءًا لاَ يَتَجَزَّأُ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ وَطَبِيعَتِهِ الْمِثَالِيَّةِ وَإِنْسَانِيَّتِهِ

الْفَرِيدَةِ، وَبِهَذَا صَارَ سَعِيدٌ قُدْوَةً لِرِفَاقِهِ، بَلْ صَارَ مُمَثِّلاً وَقَائِدًا لِقِسْمِهِ أَثْنَاءَ القِيامِ بِخَرَجَاتٍ اِسْتِطْلاَعِيَّةٍ فِي الْبَلَدِيَّةِ، أَوْ فِي الْمُسْتَشْفَى، أَوْ فِي الْغَابَةِ، وَأَثْنَاءَ العَوْدَةُ بَعْدَ هَذِهِ الرِّحْلاَتِ الْعِلْمِيَّةِ إِلَى الْقِسْمِ رُفْقَةَ مُعَلِّمِهِ وَأَصْدِقَائِهِ لِتَقْيِيمِ وَدِرَاسَةِ العَيِّنَاتِ التِّي جَمَعُوهَا، مِنَ نَبَاتَاتٍ غَابِيَّةٍ أَوْ أَحْجَارٍ أَوْ حَشَرَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

لَقَدْ أَصْبَحَ سَعِيدٌ مُولَعًا بِالبَحْثِ عَنِ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ المَجْهُولَةِ، مُولَعًا بِمَعْرِفَةِ تَصَرُّفَاتِ الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ، مُولَعًا بِمَا تُخْفِيهِ الْطَّبِيعَةُ فِي صَدْرِهَا مِنْ أَسْرَارٍ غَرِيبَةٍ وَعَجِيبَةٍ، لاَ تَهُمُّهُ الْمَظَاهِرُ الخَارِجِيَّةُ للأَشْكَالِ بِقَدْرِ مَا كَانَ يَهُمُّهُ الْوُقُوفُ عَلَى الْحَقَائِقِ العِلْمِيَّةِ التِّي يَقْبَلُهَا وَيُدَعِّمُهَا كُلٌّ مِنَ الْمَنْطِقِ وَالْعَقْلِ، فَهُوَ عَنِيدٌ أَثْنَاءَ المُنَاقَشَةِ مَعَ رِفَاقِهِ أَوْ مَعَ أَبِيهِ أَوْ مَعَ مُعَلِّمِهِ، وَلَكِنَّ كُلَّ ذَلِكَ فِي إِطَارِ الآدَابَ العَامَّةِ، هَذِهِ الصِّفَةُ جَعَلَتْهُ مِثَالاً لاَ يَعْتَرِفُ إِلاَّ بِلُغَةِ الأَرْقَامِ وَأَصْبَحَ مُتَمَيِّزًا بِهَا عَنْ بَاقِي رِفَاقِهِ سَوَاءٌ فِي الْمَدْرَسَةِ أَوْ فِي الْبَيْتِ أَوْ فِي الطَّبِيعَةِ.

لِهَذَا عِنْدَمَا عَادَ مَرَّةً إِلَى الْبَيْتِ رَاجِعًا مِنْ الْمَدْرَسَةِ، أَخْبَرَهُ وَالِدُهُ بِأَنَّهُمَا سَيَخْرُجَانِ غَدًا إِلَى الصَّيْدِ فِي الغَابَةِ المُجَاوِرَةِ، سَعِيدٌ كَانَ

يَنْتَظِرُ هَذَا اليَوْمَ بِشَغَفٍ وَسُرُورٍ، لَقَدْ تَعَوَّدَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَتِ الطَّبِيعَةُ جُزْءاً لاَ يَتَجَزَّأُ مِنْ هِوَايَتِهِ، لِهَذَا أَسْرَعَ فِي جَمْعِ أَدَوَاتِ الصَّيْدِ: كَالجَزْمَةِ، وَالْخَرِيطَةِ، وَالبِدْلَةِ الرَّمَادِيَّةِ، وَالبُنْدُقِيَّةِ. وَلَمْ تَمُرَّ فَتْرَةٌ قَصِيرَةٌ حَتَّى أَصْبَحَ كُلُّ شَيءٍ جَاهِزًا.

سَاعَةُ الْحَائِطِ كَانَتْ عَقَارِبُهَا تُشِيرُ إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ لَيْلاً، الْأُمُّ مَاضِيَةٌ مُنْهَمِكَةٌ فِي جَمْعِ أَدَوَاتِ الأَكْلِ، وَفَجْأَةً وَبَيْنَمَا كَانَ كَانَ مُنْشَغِلاً فِي بَسْطِ فِرَاشِهِ بَادَرَ أُمُّهُ قَائِلاً:

- أَرْجُوكِ يَا أُمِّي، أَيْقِظِينَا مَعَ صَلاَةِ الْفَجْرِ.
- نَمْ يَا بُنَيَّ، لاَ تَقْلَقْ،، أَعْلَمُ ذَلِكَ.
- أَسْتَوْدِعُكِ اللَّهَ.
- تَمَدَّدَ سَعِيدٌ عَلَى فِرَاشِهِ، وانْتَصَبَتْ عَيْنَاهُ فِي سَقْفِ الْغُرْفَةِ، تَتَأَمَّلُ وَيَتَذَكَّرُ شَرِيطَ الغَابَةِ بِأَشْجَارِهَا الْبَاسِقَةِ، وبِطُيُورِهَا الْمُخْتَلِفَةِ الْفَرِيدَةِ، وَبِهَوَائِهَا الْمُنْعِشِ الصَّافِي، يَتَذَكَّرُ شَرِيطَ الْوِدْيَانِ وَالهِضَابِ بِأَرَانِبِهَا الْبُنِّيَةِ الرَّشِيقَةِ وَبِحَجَلِهَا البَلْقَانِيِّ المُزَرْكَشِ، وَفَجْأَةً أَطْبَقَ جَفْنَيْ عَيْنَيْهِ وَسَافَرَ فِي ظِلِّ هَذِهِ الأَحْلاَمِ وَفِي وَسَطِ هَذَا الدِّيكُورِ السَّاحِرِ.

سَعِيدٌ وَالصّيْدُ

تَنَفَّسَ النَّهَارُ، وَدَبَّتِ الْحَيَاةُ فِي الطَّبِيعَةِ مَعَ انْبِعَاثِ صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ لِصَلاَةِ الْفَجْرِ. وَصِيَاحُ الدِّيَكَةِ الْمُتَنَاثِرِ يَخْتَرِقُ أَزِقَّةَ الأَحْيَاءِ الوَاقِعَةِ بِأَطْرَافِ المَدِينَةِ، أَيْقَظَتِ الأُمُّ زَوْجَهَا وَسَعِيدًا، أَصْبَحَ البَيْتُ مَشْحُونًا بِالحَرَكَاتِ الصَّاخِبَةِ، هَذِهِ الأُمُّ فِي سِبَاقٍ مَعَ الزَّمَنِ فِي تَحْضِيرِ الحَلِيبِ وَالقَهْوَةِ وإِنْضَاجِ الْكِسْرَةِ، وَذَاكَ سَعِيدٌ مُنْهَمِكٌ فِي لُبْسِ الْجَزْمَةِ الْجِلْدِيَّةِ وبِدْلَةِ الصَّيْدِ، وَذَاكَ الْوَالِدُ وَاقِفٌ يُؤَدِّي صَلاَةَ الْفَجْرِ، والْكَلْبُ «وَاشِقٌ» ذُو الأُذُنَيْنِ الطَّوِيلَتَيْنِ الْعَرِيضَتَيْنِ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ أَفْرَادِ الأُسْرَةِ بِحَرَكَاتِهِ الرَّشِيقَةِ مُعَبِّرًا عَنْ فَرْحَتِهِ، لَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّهُ عَلَى وَشَكِ الانْطِلاَقِ نَحْوَ البَرِّيَّةِ. أَجَلْ لَقَدْ عَرَفَ كُلَّ الْحَرَكَاتِ عِنْدَمَا رَأَى الْوَالِدَ يَتَنَاوَلُ بُنْدُقِيَّتَهُ وَيُعَلِّقُهَا عَلَى كَتِفِهِ.

وَفِي لَمْحِ الْبَرْقِ صَارَ الاثْنَانِ فِي أَتَمِّ الاسْتِعْدَادِ. حَمَلَ سَعِيدٌ الْخَرِيطَةَ التِي فِيهَا الزَّادُ عَلَى كَتِفِهِ، وَعَلَّقَ قَارُورَةَ المَاءِ فِي خِصْرِهِ، وانْطَلَقَا مُوَدِّعَيْنِ الْمَنْزِلَ بِصُحْبَةِ الكَلْبِ «وَاشِقٍ»، وَالأُمُّ كَانَتْ تُرَدِّدُ عِبَارَةَ:

- رَافَقَتْكُمَا السَّلاَمَةُ، رَافَقَتْكُمَا السَّلاَمَةُ.

سَارَا وَسَطَ الظَّلاَمِ المُتَبَقِّي مِنْ عُمْرِ اللَّيْلِ، شَوَارِعُ الْحَيِّ شَاغِرَةٌ مِنَ المَارَّةِ مَا عَدَا حَرَكَاتِ الْكِلاَبِ المُشَرَّدَةِ، سَعِيدٌ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ لَمْ يُعِرْ لِهَذَا المَنْظَرِ اِهْتِمَامًا بِقَدْرِ مَا كَانَ يُفَكِّرُ فِي نَتِيجَةِ الْصَّيْدِ لِهَذَا اليَوْمِ، إِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَقْبِضَ عَلَى بَعْضِ الطَّرَائِدِ مِنْ أَجْلِ تَرْبِيَتِهَا والتَّحَقُّقِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ تَحْدِيدِ وَظِيفَتِهَا بَعْدَ أَنْ تَصْبِحَ أَلِيفَةً.

لَقَدْ جَرَّبَ العَمَلِيَّةَ، وَلَكِنَّ كُلَّ الطَّرَائِدِ مَاتَتْ مِنْ أَثَرِ الْجُرُوحِ الْبَلِيغَةِ التِّي لَحِقَتْ بِهَا، لِهَذَا كَانَ يَعْشَقُ الصَّيْدَ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يُفَكِّرُ فِي لُحُومِهَا، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ هِيَ التَّمَتُّعُ بِجَمَالِهَا وَرَشَاقَتِهَا وَصَوْتِهَا وَكَسْبِ مَوَدَّتِهَا وَالْوُصُولِ بَعْدَهَا إِلَى نَتِيجَةِ تَجْرِبَتِهِ.

وَعَلَى حِينِ غِرَّةٍ أَخَذَ النَّهَارُ يُرْسِلُ ابْتِسَامَتَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِوَاسِطَةِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الذَّهَبِيَّةِ التِّي أَخَذَتْ تُرْقِصُ التِلاَلَ وَالهِضَابَ وَالجِبَالَ. وَالْحُقُولُ تَتَخَلَّلُهَا أَصْوَاتُ الْعَصَافِيرِ وَالشَّحَارِيرِ وَالْغِرْبَانِ وَالحَجَلِ وَهِيَ تَهُزُّ الْكَوْنَ طَرَبًا بِسِنْفُونِيَّةٍ رَائِعَةٍ اِمْتَزَجَتْ مَعَ خَرِيرِ

الشَّلاَّلاَتِ المُنْبَعِثَةِ مِنْ قِمَمِ الْجِبَالِ.

لَقَدْ طَلَعَ النَّهَارُ، سَعِيدٌ وَوَالِدُهُ وَجَدَا نَفْسَيْهِمَا قَدِ ابْتَعَدَا عَنِ الْمَدِينَةِ بِمَسَافَةِ عَشْرِ كِيلُو - مِتْرَاتٍ، وأَنَّهُمَا الآنَ عَلَى مَشَارِفِ أَحَدِ الْجِبَالِ، الأَرْضُ كَثِيفَةٌ بِأَشْجَارِ الصَّنَوْبَرِ وَالعَرْعَارِ وَالبَلُّوطِ وَنَبَاتِ الحَلْفَاءِ، وَبُيُوتُ المَدِينَةِ تَبْدُو مِنْ بَعِيدٍ فِي الأَسْفَلِ كَعُلَبِ الكَبْرِيتِ، السَّيْرُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَحْرَاشِ والْغَابَةِ يَتَطَلَّبُ كَثِيرًا مِنَ الْحَذَرِ وَالتَّجْرُبَةِ وَالكَلْبُ «وَاشِقٌ» يَرُوحُ وَيَجِيءُ، يَصْعَدُ وَيَهْبِطُ، يَبْتَعِدُ وَيَقْتَرِبُ فِي حَرَكَاتٍ رَشِيقَةٍ رَاقِصَةٍ، وَأَنْفُهُ الأَسْوَدُ البَرَّاقُ مُلْتَصِقٌ بِالأَرْضِ يَتَشَمَّمُ رَائِحَةَ الطَّرِيدَةِ، وذَيْلُهُ الْمَعْقُوفُ لاَ يَهْدَأُ، وَالوَالِدُ يُسْنِدُ بُنْدِقِيَّتَهُ بِيَدَيْهِ إِلَى صَدْرِهِ، وَنَظَرَاتُهُ الحَادَّةُ مُرَكَّزَةٌ فِي حَرَكَاتِ الْكَلْبِ «وَاشِقٍ». فَجْأَةً صَاحَ سَعِيدٌ مُشِيرًا بِسَبَّابَتِهِ:

- أَبِي، أَبِي، يَبْدُو أَنَّ الحَجَلَ قَدْ مَرَّ مِنْ هُنَا.

- بِالتَّأْكِيدِ، إِنَّ حَرَكَاتِ الْكَلْبِ تُبَيِّنُ ذَلِكَ.

- أَلاَ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْ هُنَا؟

- المُهِمُّ، اِصْعَدْ عَلَى يَمِينِي،، وابْتَعِدْ قَلِيلاً حَتَّى لاَ تُصِيبَكَ الرَّصَاصَةُ.

اِنْطَلَقَ سَعِيدٌ فِي اتِّجَاهِ الْهَضْبَةِ، الْمَكَانُ مُنْحَدِرٌ جِدًّا، الْحَلْفَاءُ وَالشِّيحُ وَالدِّيسُ تُغَطِّي هَذِهِ الْبُقْعَةَ، سَعِيدٌ كَانَ يَرْمِي خُطُوَاتِهِ بَيْنَ نَبَاتِ الْحَلْفَاءِ، السَّيْرُ شَاقٌّ وَعَسِيرٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ، قَلْبُهُ صَارَ يَدُقُّ وَيَدُقُّ، عَيْنَاهُ تَارَةً مُصَوَّبَتَانِ نَحْوَ الْكَلْبِ وَطَوْرًا إِلَى الوَالِدِ، لاَ شَكَّ أَنَّ سِرْبَ الْحَجَلِ بَيْنَ نَبَاتِ الْحَلْفَاءِ، أَجَلْ، حَرَكَاتُ الْكَلْبِ تُوحِي بِذَلِكَ، لَقَدْ أَخَذَ يَتَحَسَّسُ الْمَكَانَ، أَجَلْ، بَلْ يَخْطُو بِخُطُوَاتٍ مُتَبَاطِئَةٍ، رَأْسُهُ ثَابِتَةٌ لاَ تَتَحَرَّكُ، وَعَيْنَاهُ فِي حَرَكَاتٍ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَذَاتَ الْيَسَارِ، فَجْأَةً رَمَى رِجْلَهُ الأَمَامِيَّةَ بِحَذَرٍ وَبِبُطْءٍ، لَقَدْ تَوَقَّفَ، هَدَأَتْ جَمِيعُ حَرَكَاتِ أَعْضَائِهِ، صَارَ كَالتِّمْثَالِ. فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ هَمَسَ سَعِيدٌ فِي أُذُنِ وَالِدِهِ:

- اِسْتَعِدَّ يَا أَبِي، الْحَجَلَةُ تَحْتَ رَأْسِ الْحَلْفَاءِ.

اِقْتَرَبَ الْوَالِدُ بِخُطىً بَطِيئَةٍ حَذِرَةٍ نَحْوَ الْكَلْبِ «وَاشِقٍ» وَالْبُنْدُقِيَّةُ مُصَوَّبَةٌ إِلَى مكانِ الطَّرِيدَةِ، تَوَقَّفَ، اِسْتَعَدَّ، قَطَعَ أَنْفَاسَهُ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ الكَلْبَ «وَاشِقًا» بِالهُجُومِ، وَفَجْأَةً اِنْطَلَقَ أَرْنَبٌ بُنِّيٌّ كَالسَّهْمِ مُخْتَرِقًا رؤُوسَ الْحَلْفَاءِ، فَانْطَلَقَتْ فِي إِثْرِهِ رَصَاصَتَانِ اثْنَتَانِ، وَعَلَى إِثْرِهِمَا صَاحَ سَعِيدٌ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ:

لَقَدْ سَقَطَ! لَقَدْ سَقَطَ!!

انْطَلَقَ الْكُلُّ بِسُرْعَةٍ جُنُونِيَّةٍ وَبِقُلُوبٍ تَخْفُقُ نَحْوَ الْمَكَانِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا الْقَنِيصَ، لَقَدْ نَجَا مِنَ الْمَوْتِ. طَأْطَأَ سَعِيدٌ رَأْسَهُ وَأَحْنَى ظَهْرَهُ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ رَاحَ يَتَفَحَّصُ التُّرْبَةَ بِسَبَّابَتِهِ، فَجْأَةً صَاحَ قَائِلاً:

أُنْظُرْ يَا أَبِي!، لَقَدْ أُصِيبَ الأَرْنَبُ، أُنْظُرْ هُنَا، هَاهِيَ قَطَرَاتُ الدَّمِ.

- فِعْلاً، لَقَدْ أُصِيبَ وَلَكِنَّهُ نَجَا.

تَحَسَّرَ سَعِيدٌ عَلَى حَظِّهِ، لَقَدْ نَجَا الأَرْنَبُ بِأُعْجُوبَةٍ مِنَ الرَّصَاصَتَيْنِ.

وَاصَلَ سَعِيدٌ بِرُفْقَةِ وَالِدِهِ وَالْكَلْبِ «وَاشِقٍ» الْبَحْثَ عَنِ الأَرْنَبِ الْمَجْرُوحِ، وَلَكِنْ بِدُونِ جَدْوَى، فَعَرَّجَا عَلَى وَادٍ تَكْسُوهُ أَشْجَارُ الدِّفْلَى، الْمَكَانُ ضَيِّقٌ وَمُخِيفٌ، مُنْحَدِرٌ جِدًّا، وَسَعِيدٌ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ يَتَنَاوَلُ جُرُعَاتِ مَاءٍ، فَقَدِ اشْتَدَّتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ، وَإِنَّ الْقَارُورَةَ الْمَمْلُوءَةَ لاَ تَكْفِي، لِهَذَا كَانَ الوَالِدُ يَنْصَحُهُ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ بِالاِقْتِصَادِ فِي شُرْبِ الْمَاءِ فَمَنَابِعُ الْمِيَاهِ مُتَبَاعِدَةٌ عَنْ بَعْضِهَا

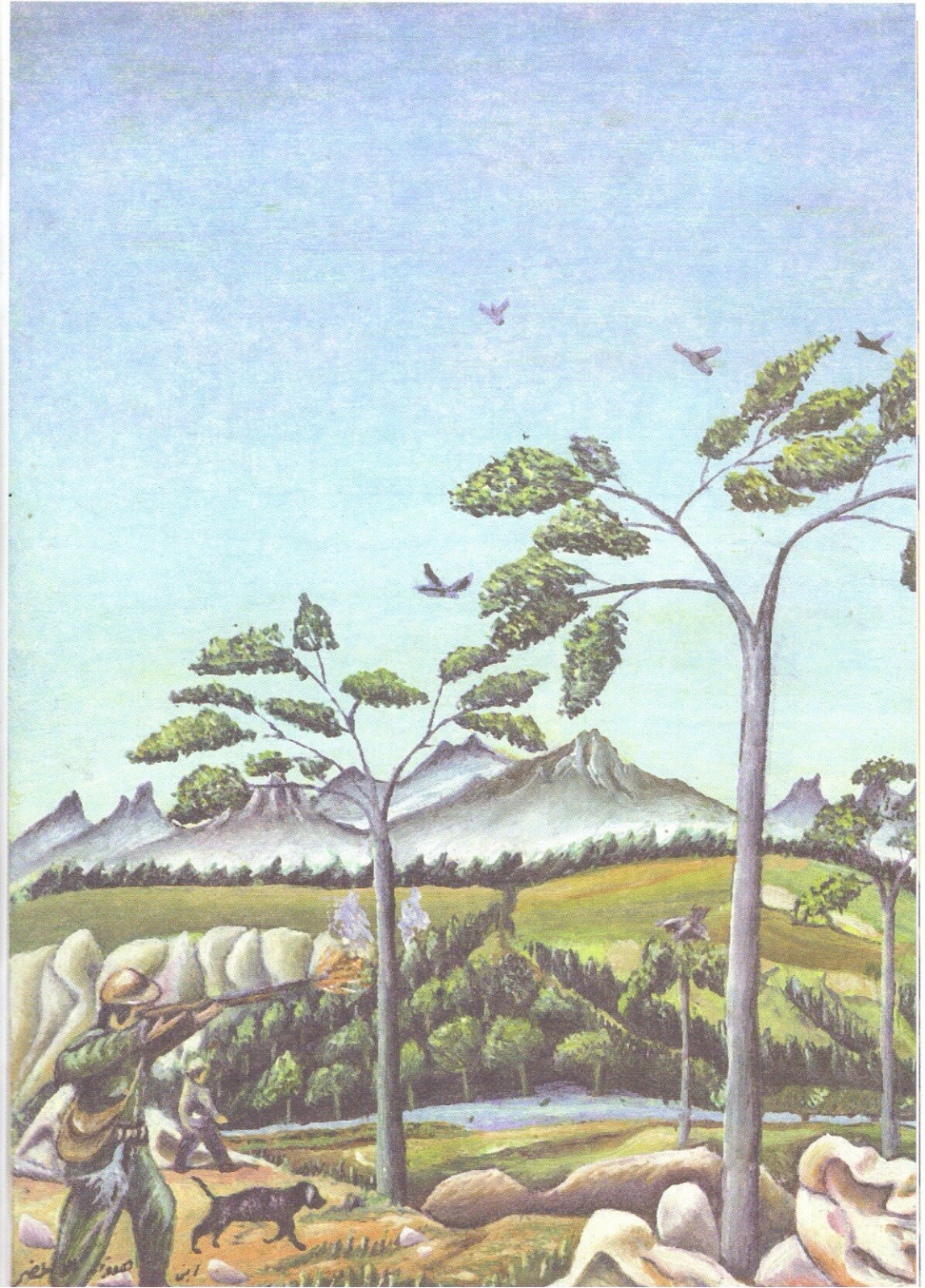

الْبَعْضِ، وإِنَّ الاِسْتِهْلاَكَ الْمُفْرِطَ سَيُعَرِّضُهُمَا لِلْعَطَشِ.

بَقِيَ سَعِيدٌ فِي أَعْلَى الْوَادِي بَعْدَمَا شَعَرَ أَنَّ الْكَلْبَ اشْتَمَّ رَائِحَةً، بَقِيَ يُوَجِّهُ الْوَالِدَ مِنْ فَوْقِ الصَّخْرَةِ، الْكَلْبُ تَسَلَّلَ بَيْنَ الأَشْجَارِ الْكَثِيفَةِ، فَجْأَةً تَوَقَّفَ، لَكِنَّ الْوَالِدَ لَمْ يُشَاهِدْهُ، وَعَلَى حِينِ غِرَّةٍ صَرَخَ سَعِيدٌ:

- اسْتَعِدَّ يَا أَبِي، اِجْرِ نَحْوَ الْكَلْبِ، إِنَّهُ مُنْتَصِبٌ لاَ يَتَحَرَّكُ.

هَرْوَلَ الْوَالِدُ بَيْنَ الصُّخُورِ، الأَرْضُ مُنْحَدِرَةٌ جِدًّا، تَارَةً يَسْقُطُ عَلَى مُؤَخِّرَتِهِ، وَمَرَّةً يَنْهَضُ وَهُوَ يَنْفُضُ مَلاَبِسَهُ مِنَ الْغُبَارِ إِلَى أَنْ وَصَلَ، تَقَدَّمَ بِحَذَرٍ مُنْحَنِيَّ الظَّهْرِ بَيْنَ الأَشْجَارِ وَسَبَّابَتُهُ عَلَى الزِّنَادِ، أَمَرَ الْكَلْبَ بِالْهُجُومِ، طَارَتِ الْحَجَلَةُ وَخَلْفَهَا صَوْتٌ مُدَوٍّيٌ كَالرَّعْدِ، وَمَا كَادَتْ تَسْتَقِيمُ فِي الْفَضَاءِ حَتَّى رَاحَتْ تَتَقَلَّبُ فِي اتِّجَاهِ أَسْفَلِ الْوَادِي، ثُمَّ تَوَارَتْ خَلْفَ هَضْبَةٍ، لَكِنَّ عَيْنَيْ سَعِيدٍ كَانَتَا تُلاَحِقَانِهَا مِنْ بَعِيدٍ مِنْ أَعْلَى الصَّخْرَةِ، عِنْدَهَا صَاحَ سَعِيدٌ:

- لَقَدْ سَقَطَتْ فِي الْوَادِي الْمُجَاوِرِ.

نَزَلَ سَعِيدٌ يَعْدُو فِي المُنْحَدَرِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، الْتَحَقَ بِهِ الْكَلْبُ بَعْدَ أَنْ رآهُ يَجْرِي. وَمَا كَادَ يَصِلُ حَتَى كَسَاهُ الْعَرَقُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ وَهُوَ يَلْهَثُ. تَوَجَّهَ إِلَى الأَشْجَارِ، أَمَرَ الْكَلْبَ بِالبَحْثِ عَنْهَا، وَفَجْأَةً وَجَدَ الرِيشَ مُتَنَاثِرًا، أَخَذَ يَتَتَبَّعُ الرَّائِحَةَ، لَمْ يَجِدْهَا فِي المَكَانِ الَّذِي كَانَ قَدْ حَدَّدَهُ مِنْ بَعِيدٍ، لَقَدْ مَشَتْ مَسَافَةً مُعْتَبَرَةً، إِثْرَهَا وَجَدَهَا مُخْتَفِيَةً بَيْنَ أَوْرَاقِ الأَشْجَارِ، مَسَكَهَا الْكَلْبُ بَيْنَ فَكَّيْهِ وَحَمَلَهَا إِلَى سَعِيدٍ وَسَلَّمَهَا لَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ إِشْفَاقٍ، أَخَذَهَا سَعِيدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، انْدَهَشَ مِنْ شَكْلِهَا الانْسِيَابِيِّ، إِنَّهَا جَمِيلَةٌ، رَأْسُهَا صَغِيرٌ وَعُنُقُهَا مُزَرْكَشٌ بِخُطُوطٍ بُنِّيَّةٍ وَبَيْضَاوِيَّةٍ، إِنَّهَا حَيَّةٌ لَمْ تَمُتْ، ولِأَنَّ الإِصَابَةَ كَانَتْ فِي جَنَاحِهَا الأَيْمَنِ فَقَطْ.

تَوَجَّهَ سَعِيدٌ نَحْوَ الْوَالِدِ وَبَعْدَ أَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ طَلَبَ مِنْهُ أَلاَّ يَذْبَحَهَا، فَوَافَقَ الْوَالِدُ عَلَى طَلَبِهِ، لَقَدْ قَرَّرَ أن يُعَالِجَهَا وَيُرَبِّيَهَا.

انْتَقَلَ الْوَالِدُ يَبْحَثُ عَنْ بَاقِي الْحَجَلاَتِ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ سَعِيدًا كَعَادَتِهِ بِالصُّعُودِ إِلَى مُرْتَفَعٍ يُمْكِنُ مِنْهُ مُرَاقَبَةُ الطَرِيدَةِ، فالأَرْضُ ذَاتُ تَضَارِيسَ وَأَحْرَاشٍ، وإِنَّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَمْكِنَةِ الصَّعْبَةِ تَضِيعُ

طَرَائِدُ كَثِيرَةٌ لِلصَّيَّادِينَ.

بَدَأَ الْوَالِدُ الْبَحْثَ بِمُرَافَقَةِ «وَاشِقٍ» عَنْ بَاقِي الْحَجَلاَتِ، وَبَعْدَ بُرْهَةٍ تَوَقَّفَ الْكَلْبُ «وَاشِقٌ»، انْتَصَبَتْ أُذُنَاهُ، وَرَفَعَ رِجْلَهُ الأَمَامِيَّةَ مُسْتَعِدًّا لِلْهُجُومِ، إِثْرَهَا اعْتَدَلَ الْوَالِدُ، تَصَدَّرَ بُنْدُقِيَّتَهُ، وَضَعَ سبَّابَتَهُ عَلَى الزِّنَادِ، وَمَا كَادَ يَنْتَهِي حَتَى طَارَتِ الحَجَلَةُ الثَانِيَةُ ثُمَّ الثَّالِثَةُ، وَفِي لَمْحِ الْبَصَرِ أَخَذَتَا تَهْوِيانِ الْوَاحِدَةُ تِلْوَ الأُخْرَى.

انْطَلَقَ الْكَلْبُ «وَاشِقٌ» يَطْوِي الشِّعَابَ وَالوِهَادَ طَيًّا فِي جَمْعِ هَذِهِ الْغَنِيمَةِ مِن الطَّرائِدِ بَعْدَ أَنْ الْتَحَقَ بِهِ سَعِيدٌ الذِي كَانَ يَتَمَنَّى أَلاَّ تَمُوتَ حَتَّى يُرَبِّيَهَا وتَتَكَاثَرَ، وَلَكِنَّ حَظَّهُ كَانَ يُعَاكِسُهُ، فَقَدْ وَجَدَهَا كُلَّهَا مَقْتُولَةً، فَعَادَ وَالحَسْرَةُ تُمَزِّقُ أَوْصَالَهُ، وَحِينَ اقْتَرَبَ مِنَ الْوَالِدِ تَنَهَّدَ تَنْهِيدَةً مُؤْلِمَةً ثُمَّ قَالَ:

- يَا لَهُ مِنْ حَظٍّ مَنْحُوسٍ!، لَقَدْ مَاتَتْ الْحَجَلاَتُ.
- مَاذَا تَقْصِدُ؟
- كُنْتُ أَتَمَنَّى أَلاَّ تَمُوتَ.
- لِمَاذَا؟
- لِأُرَبِّيَهَا.

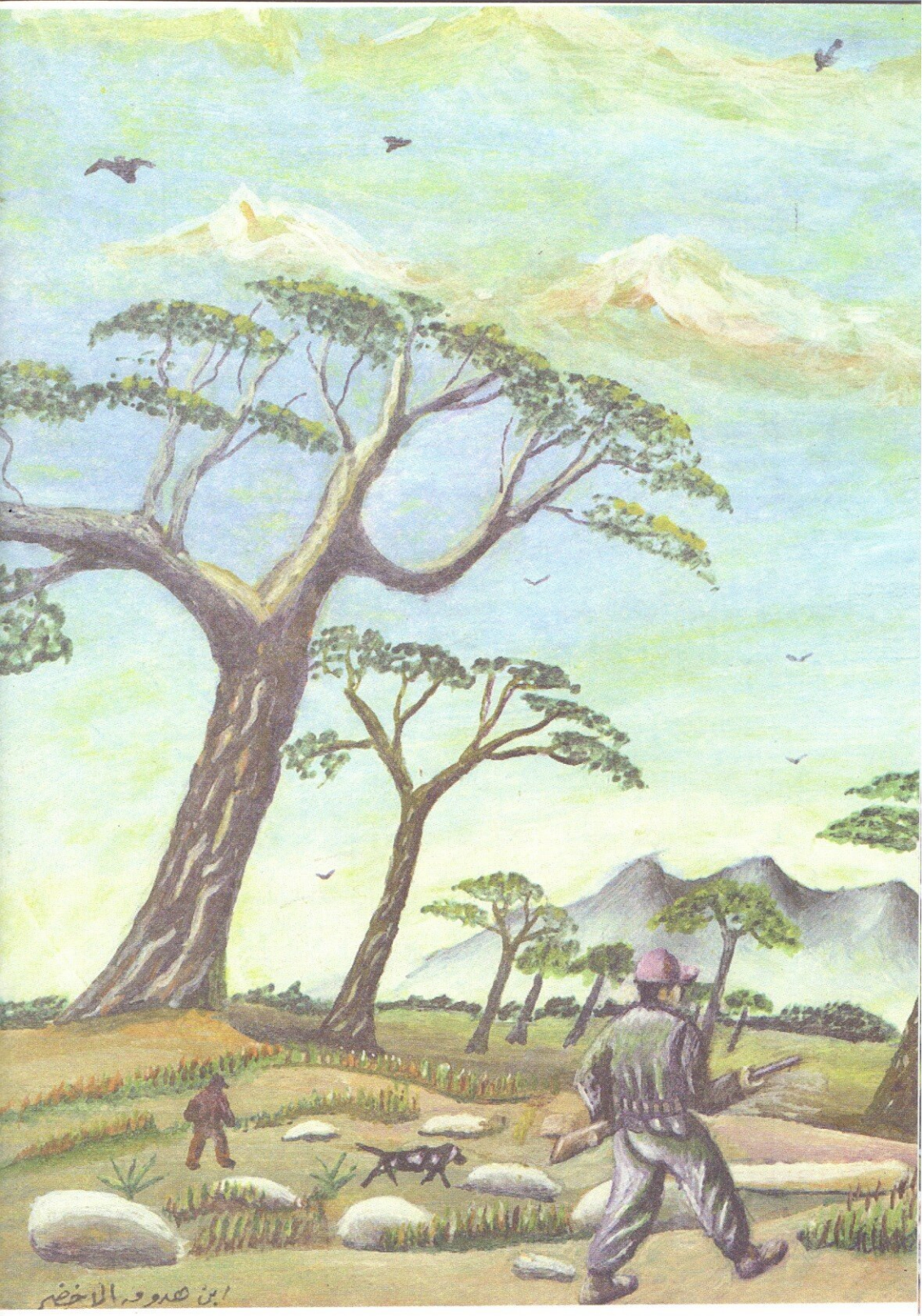
ابن هدوه الاخضر

- قَهْقَهَ الْوَالِدُ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ:

- الْحَيَوَانُ الْبَرِيُّ لاَ يُرَبَّى يا بُنَيَّ.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ بَدَأَ سَعِيدٌ يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ وَالإِرْهَاقِ، لِذَلِكَ أَخْرَجَ الأَكْلَ مِنَ الْخَرِيطَةِ وَمَضَيَا يَتَنَاوَلاَنِ الْغَدَاءَ فِي الوَقْتِ الذِي أَصْبَحَتْ فِيهِ الشَّمْسُ تُعْلِنُ رَحِيلَهَا نَحْوَ الْعَصْرِ. إِذَنْ الوَقْتُ أَصْبَحَ ضَيِّقًا، وإِنَّ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الْبَيْتِ وَالجَبَلِ طَوِيلَةٌ جِدًّا. لِهَذَا أَسْرَعَ سَعِيدٌ وَوَالِدُهُ فِي تَنَاوُلِ وَجْبَةِ الْغَدَاءِ، وعِنْدَمَا إِنْتَهَيَا انْطَلَقَا فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ إِلَى الْبَيْتِ. الطَّرِيقُ أَصْبَحَ مُنْحَدِرًا جِدًّا، وَلَكِنَّهُ لاَ يَتَطَلَّبُ بَذْلَ جُهْدٍ كَبِيرٍ، وَبَيْنَمَا هُمَا يَسِيرَانِ تَحْتَ هَضْبَةٍ صَخْرِيَّةٍ عَالِيَةٍ تَتَخَلَّلُهَا أَشْجَارُ البَلُّوطِ وَإِذَا بِالْكَلْبِ يُبْصِرُ سِرْبًا مِنَ الحَمَامِ مُنْتَشِرًا فَوْقَ هَذِهِ الصُّخُورِ، وَعِنْدَمَا هَمَّ بِالقَبْضِ عَلَيْهَا طَارَتْ فِي السَّمَاءِ. فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْتَفَتَ سَعِيدٌ إِلَى مَصْدَرِ الصَّوْتِ الذِّي أَحْدَثَهُ الطَّيَرَانُ، عِنْدَهَا أَبْصَرَ حَمَامَةً دَخَلَتْ فِي أَحَدِ شُقُوقِ الْجِدَارِ الصَّخْرِي، فَهَمَسَ فِي أُذُنِ وَالِدِهِ:

- أَبِي، أَبِي، أُنْظُرْ هُنَاكَ.

تَوَقَّفَ الْوَالِدُ، اسْتَقَامَ، تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ قَلِيلاً مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ ثُمَّ قَالَ:

- مَاذَا؟ ... مَاذَا؟
- حَمَامَةٌ دَخَلَتْ فِي ذَلِكَ الشَّقِّ.
- يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مُفَرِّخَةً.
- سَأَصْعَدُ لِأَسْتَطْلِعَ الأَمْرَ.
- وَلَكِنَّ الْمَكَانَ صَعْبُ الصُّعودِ.
- لاَ يَهُمُّنِي أَمْرُهُ، الْمُهِمُّ أَنْ يَكُونَ فِي الْعُشِّ فِرَاخٌ.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةُ شَعَرَ الْوَالِدُ بِأَنْ ابْنَهُ لَنْ يَتَرَاجَعَ عَنْ طَلَبِهِ، فَنَزَعَ الْبُنْدُقِيَّةَ عَنْ كَتِفِهِ وَسَلَّمَهَا لِابْنِهِ. ثُمَّ أَخَذَ يَتَسَلَّقُ الصُّخُورَ الْمُحْدَوْدَبَةَ، وَلَمْ يَكَدْ يَبْلُغُ الشَّقَّ حَتَّى أَوْشَكَ أَنْ يَسْقُطَ. عِنْدَ ذَلِكَ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ، ثُمَّ أَرْسَلَ نَظَرَهُ دَاخِلَ الشَّقِّ، وَفَجْأَةً اصْطَدَمَ بَصَرُهُ بِعُشٍّ وَبِدَاخِلِهِ فَرْخٌ مَا زَالَ بِزَغَبِهِ الأَبْيَضِ، فَمَدَّ يَدَهُ، وَأَدْخَلَ ذِرَاعَهُ، فَأَخْرَجَ الْفَرْخَ وَهُوَ يَتَخَبَّطُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ نَزَلَ.

كَادَ سَعِيدٌ يَطِيرُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، لَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ مَحْظُوظٌ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَة. أَجَلْ، مُنْذُ مُدَّةٍ كَانَ يَأْمَلُ فِي تَحْقِيقِ أُمْنِيَتِهِ

وَهِي: الْتَّحَقُّقُ مِنْ أَنَّ الْحَمَامَ كَانَ فِعْلاً وَسِيلَةَ اتِّصَالٍ بَيْنَ الشُّعُوبِ كَمَا ذَكَرَهُ لَهُ مُعَلِّمُهُ أَمْ قِصَّةُ الْحَمَامِ قِصَّةٌ خُرَافِيَّةٌ؟ وَاصَلَ سَيْرَهُ وَالفَرْحَةُ تَغْمُرُهُ تَارَةً، وَطَوْرًا يُحَاوِلُ الإِجَابَةَ عَنْ تَخْمِينَاتٍ تَدُورُ فِي ذِهْنِهِ حَوْلَ تَرْبِيَةِ الْحَمَامِ.

لَمْ يَكَدْ سَعِيدٌ يَفْرَغُ مِنْ تَفْكِيرِهِ حَتَّى وَجَد نَفْسَهُ أَمَامَ الْبَيْتِ، لَقَدْ نَسِيَ تَعَبَهُ، نَسِيَ صُعُوبَةَ مَسْلَكِ الطَّرِيقِ الْجَبَلِيِّ. وَبِمُجَرَّدِ مَا وَقَفَ أَمَامَ الْبَابِ حَتَّى تَسَابَقَ نَحْوَهُ إِخْوَتُهُ، وَمَضُوْا يُهَاجِمُونَهُ لِلاسْتِيلاَءِ عَلَى الطَّرَائِدِ، إِثْرَهَا تَدَخَّلَتِ الأُمُّ وَهَدَّأَتِ الْوَضْعَ، فَعَمَّتِ الْفَرْحَةُ أُسْرَةَ سَعِيدٍ، وَلَمْ تَنَمْ إِلاَّ بَعْدَ وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ عُمُرِ اللَّيْلِ، فَنَامَ سَعِيدٌ لِيَنْهَضَ غَدًا وَيُحَقِّقَ مَشْرُوعَهُ وَحُلْمَهُ.

سَعِيدٌ وَالحَمَامُ الزَّاجِلُ

اِسْتَيْقَظَ سَعِيدٌ كَعَادَتِهِ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ، وَاسْتَيْقَظَ مَعَ وَاقِعٍ جَدِيدٍ، كَانَ يَبْحَثُ عَنِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي تُوصِلُهُ إِلَى غَايَتِهِ الْمُهِمَّةُ صَعْبَةٌ، وَتَحْقِيقُ الْغَايَةِ لَيْسَ بِالأَمْرِ السَّهْلِ، لِهَذَا فَإِنْ خَرَجَ مِنَ الْمَدْرَسَةِ، عَادَ إِلَى الْبَيْتِ مُبَاشَرَةً وَالشَّوْقُ يَدْفَعُهُ لِرُؤْيَةِ الْحَمَامِ الزَّاجِلِ لِأَنَّ الْحَجَلَةَ الَّتِي اصْطَادَهَا بِالأَمْسِ قَدْ مَاتَتْ بِمجَرَّدِ وُصُولِهَا إِلَى الْبَيْتِ.

أَخَذَ سَعِيدٌ يُتَابِعُ تَصَرُّفَاتِ الْحَمَامِ الْغَرِيبَةِ فِي غُرْفَتِهِ، لَمْ تَكُنْ مُعَامَلَتُهُ سَهْلَةً، فَإِنِ اقْتَرَبَ مِنْهُ اضْطَرَبَ واشْمَأَزَّ وَحَاوَلَ الْفِرَارَ وَالاِخْتِفَاءَ وَرَاءَ الْخِزَانَةِ أَوِ الأَرِيكَةِ، لَكِنَّ حُبَّ سَعِيدٍ الوُصُولَ إِلَى غَايَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ السَّامِيَّةِ جَعَلَ الْفَرْخَ يَرْضَخُ وَيَسْتَسْلِمُ، فَأَصْبَحَ يَتَنَاوَلُ الأَكْلَ الَّذِي يُحَضِّرُهُ لَهُ دُونَ أَنْ يَنْزَعِجَ مِنْ وُجُودِهِ، بَلْ أَصْبَحَ يَشْعُرُ بِالغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ وَالسَّعَادَةِ.

وَبِمُرُورِ الزَّمَنِ أَخَذَ الْفَرْخُ يَكْبُرُ مَعَ حُبِّ سَعِيدٍ وَصَدَاقَتِهِ الْمِثَالِيَّةِ حَتَّى صَارَ حَمَامًا كَبِيرًا، رَشِيقَ الْجِسْمِ، رَمَادِيَّ الرِّيشِ، ذَا عُنُقٍ مُزَيَّنٍ بِقِلاَدَةٌ مُزَرْكَشَةٍ مِنَ الرِّيشِ الْبَنَفْسَجِيِّ الْبَرَّاقِ، وَرَأْسٍ صَغِيرٍ أَنِيقٍ جَمِيلٍ، وَمِنْقَارٍ أَحْمَرَ قَصِيرٍ لَطِيفٍ.

فَتَحَ لَهُ الْبَيْتُ حِضْنَهُ الرَّحْبَ الْكَبِيرَ، صَارَ يَتَنَقَّلُ فِي الْغُرْفَةِ، فِي الْبَهْوِ، فِي حَدِيقَةِ الْبَيْتِ الصَّغِيرَةِ الْمُجَاوِرَةِ بِكُلِّ حُرِّيَّةٍ كَالزَّعِيمِ، يَمْلَأُ الْبَيْتَ هَدِيرًا سَاحِرًا جَذَّابًا، لَمْ يَكُنْ يَنْزَعِجُ مِنَ الْقِطَّةِ السَّوْدَاءِ ذَاتِ الشَّعْرِ الْحَرِيرِيِّ النَّاعِمِ وَالعَيْنَيْنِ الْمُسْتَدِيرَتَيْنِ الْبَرَّاقَتَيْنِ الْمُقِيمَةِ مَعَهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ، بَلْ كَانَا يَتَقَاسَمَانِ الْأَكْلَ، وَأَحْيَانًا تَرَاهُمَا يَلْعَبَانِ مَعًا فَوْقَ السَّرِيرِ أَوْ فَوْقَ الطَّاوِلَةِ دُونَ أَيِّ حَرَجٍ، فَتَأَصَّلَتْ بَيْنَهُمَا صَدَاقَةٌ حَمِيمَةٌ عَمِيقَةٌ، وَسَعِيدٌ يُتَابِعُ كُلَّ حَرَكَةٍ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ تَصْدُرُ عَنِ الْحَمَامِ، وَحِينَ أَحْضَرَتِ الأُمُّ الثَّرِيدَ وَتَجَمَّعَتِ الأُسْرَةُ حَوْلَهُ اِنْهَمَكَ الْحَمَامُ فِي رَقَصَاتٍ دَائِرِيَّةٍ فَوْقَ الْمَائِدَةِ مَزْهُوًّا بِنَفْسِهِ كَالمَلِكِ، تَارَةً يَتَبَخْتَرُ بِعَظَمَتِهِ فَيَتَحَدَّى الْمَلَاعِقَ الْمُصَوَّبَةَ نَحْوَ الْطَّعَامِ، وَطَوْرًا يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَبْقَى يَهْدِلُ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ:

- تَوَقَّفُوا عَنِ الأَكْلِ، هَذَا الطَّعَامُ طَعَامِي، إِنْ شِئْتُ أَكَلْتُ مِنْهُ، وَإِنْ شِئْتُ تَرَكْتُهُ، اِبْحَثُوا عَنْ طَعَامٍ آخَرَ وَإِلاَّ فَمِنْقَارِي لَنْ يَرْحَمَ أَيْدِيَكُمْ، هَلْ سَمِعْتُمْ؟!

كَانَ الْمَشْهَدُ رَائِعًا جِدًّا، سَعِيدٌ لَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ، لَمْ يَتَمَالَكْ أَعْصَابَهُ، كَادَ يَطِيرُ فَرَحًا وَهَكَذَا أَصْبَحَتْ عَلَاقَةُ الْحُبِّ أَكْثَرَ

اِرْتِبَاطًا بَيْنَ الْحَمَامِ وَسَعِيدٍ وَالأُسْرَةِ وَالحَيَوَانَاتِ الأَلِيفَةِ الْمُقِيمَةِ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، وَكُلَّمَا أَتَى يَوْمٌ إِلاَّ وَاكْتَسَبَ فِيهِ الْحَمَامُ سُلُوكًا جَدِيدًا تَعَلَّمَهُ مِنَ الأُسْرَةِ، لِهَذَا بَنَى لَهُ سَعِيدٌ مَسْبَحًا صَغِيرًا وَسْطَ الْحَوْشِ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ شَعَرَ الْحَمَامُ بِالحَرَارَةِ الْمُرْتَفِعَةِ فَارْتَمَى فِي دَاخِلِهِ، وَمَضَى فِي مَرَحِهِ وَلَعِبِهِ، تَارَةً يَنْقُرُ الْمَاءَ بِمِنْقَارِهِ الظَّرِيفِ، وَطَوْرًا يَتَخَبَّطُ بِجِسْمِهِ وَيَتَقَلَّبُ فِي حَرَكَاتٍ بَهْلَوَانِيَّةٍ، وَعِنْدَمَا فَرَغَ مِنَ التَّبَرُّدِ وَالاسْتِحْمَامِ تَرَكَ الْمَسْبَحَ الصَّغِيرَ وَانْتَصَبَ فَوْقَ قِرْمِيدِ الْبَيْتِ لِيَنْفُشَ رِيشَهُ وَيَصِيرَ كَالبَطَّةِ.

وَلَمَّا شَعَرَ بِسِرْبِ الْحَمَامِ الزَّاجِلِ الْبَرِّي يَدُورُ فِي الْفَضَاءِ حَوْلَهُ لِجَرِّهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ هَذَا النَّعِيمِ طَارَ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ وَفَرَّ نَحْوَ الْغُرْفَةِ.

وَكَانَ إِذَا أَقْبَلَ الْمَسَاءُ تَوَجَّهَ إِلَى رَفِّ الْخِزَانَةِ، وَنَامَ نَوْمًا مُرِيحًا بَعِيدًا عَنِ أَذَى الْبَرْدِ وَالْحَرِّ.

فَأَدْرَكَ سَعِيدٌ بِذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ حَقَّقَ جُزْءًا مِنْ مَشْرُوعِهِ وَحُلْمِهِ، فَالْحَمَامُ صَارَ جَاهِزًا لِتَعَلُّمِ دُرُوسٍ أُخْرَى نَابِعَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْمَنْزِلِيَّةِ، فَأَخَذَ يُرَوِّضُهُ لِلْخُرُوجِ إِلَى الطَّبِيعَةِ، تَارَةً يُدَاعِبُهُ بِيَدِهِ وَأَصَابِعِهِ، وَمَرَّةً يَضَعُهُ عَلَى كَتِفِهِ وَيَمْشِي بِهِ مَسَافَةً مُعْتَبَرَةً، فَاسْتَلْطَفَ الْحَمَامُ

هَذِهِ المُعَامَلَةَ الطَيِّبَةَ وَازْدَادَ تَمَاسُكًا بِصَدِيقِهِ، وَضَعَ سَعِيدٌ الْحَمَامَ عَلَى صَخْرَةٍ ثُمَّ اِبْتَعَدَ عَنْهُ وَرَاحَ يُرْسِلُ لَهُ إِشَارَاتٍ إِشَارَاتٍ فِي الفَضَاءِ لِتَتَحَوَّلَ بِذَلِكَ إِلَى لُغَةٍ بِمُجَرَّدِ مَا أَنْ يُبْصِرَهَا الحَمَامُ حَتَّى يَلْتَحِقَ بِهِ.

وَهَكَذَا بَدَأَ الْحَمَامُ يَتَجَرَّدُ مِنْ طَبِيعَتِهِ الْبَرِّيَّةِ، وَمَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ أَصْبَحَتْ عَلاقَةُ الْحُبِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعِيدٍ أَكْثَرَ تَلاَحُمًا مِنْ ذِي قَبْل، إِلَى أَنْ جَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي أَصْبَحَ فِيهِ الْحَمَامُ لاَ يُفَارِقُ سَعِيدًا كُلَّمَا نَزَلَ بِمَكَانٍ أَوْ كُلَّمَا خَرَجَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ.

وَذَاتَ يَوْم قَرَّرَ سَعِيدٌ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ نَجَاحِ تَجْرِبَتِهِ، فَخَرَجَ فِي جَوْلَةٍ إِلَى الْغَابَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِمَسْكَنِهِ، وَمَا إِنْ ابْتَعَدَ بِمَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ حَتَّى طَارَ الْحَمَامُ مِنْ فَوْقِ غُرْفَةِ الْبَيْتِ وَالْتَحَقَ بِهِ فَنَزَلَ عَلَى كَتِفِهِ، وَفَجْأَةً طَارَ وَتَرَكَهُ ثُمَّ مَضَى يَلْعَبُ وَيَتَقَلَّبُ فِي الْفَضَاءِ الرَّحْبِ، وَعِنْدَمَا شَعَرَ أَنَّهُ سَعِيدٌ قَد ابْتَعَدَ عَنْهُ حَرَّكَ كَفَّهُ فِي الفَضَاءِ، وَإِذَا بِالحَمَامِ يَعُودُ كَالسَّهْمِ لِيَنْتَصِبَ عَلَى يَدِهِ وَالْفَرْحَةُ تَغْمُرُهُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ السَّعِيدَةِ الْمُشَوِّقَةِ انْهَالَ الْحَمَامُ عَلَى سَعِيدٍ بِنَقَرَاتٍ خَفِيفَةٍ عَلَى كَفِّهِ، ثُمَّ قَفَزَ فَوْقَ رَأْسِهِ وَمَضَى يُدَغْدِغُ شَعْرَهُ.

وَعِنْدَمَا شَعَرَ سَعِيدٌ بِالتَّعَبِ تَرَكَ الْحَمَامَ فَوْقَ صَخْرَةٍ صَغِيرَةٍ وَمَضَى فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْبَيْتِ. فَجْأَةً أَبْصَرَهُ غُرَابَانِ فِي الْفَضَاءِ الْعَالِي، إِذْ الْجَفَافُ فِي هَذَا الْعَامِ كَانَ وَقْعُهُ شَدِيدًا عَلَى الأَرْضِ، فَقَدْ مَاتَتْ حَيَوَانَاتٌ بَرِيَّةٌ كَثِيرَةٌ نَتِيجَةَ الْجُوعِ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَى الطَّبِيعَةِ، وَمَا هِيَ إِلاَّ لَحْظَةٌ حَتَّى اِنْقَضَّ الغُرَابَانِ نَحْوَ الْحَمَامِ بِسُرْعَةٍ جُنُونِيَّةٍ، وَعِنْدَمَا شَعَرَ بِالخَطَرِ الْمُتَوَجِّه إِلَيْهِ طَارَ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ لِيَسْتَنْجِدَ بِسَعِيدٍ، كَانَ الْغُرَابَانِ يُحَاصِرَانِهِ فِي الفَضَاءِ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحُطَّ عَلَى كَتِفِ سَعِيدٍ كَعَادَتِهِ نَتِيجَةَ الْخَوْفِ وَالهَلَعِ، فَوَاصَلَ طَيَرَانَهُ فِي اتِّجَاهِ الْبَيْتِ، وَلَكِنَّهُمَا اسْتَطَاعَا أَنْ يُجْبِرَاهُ عَلَى الاِسْتِسْلاَمِ وَالنُّزُولِ بِالوَادِي الْمُجَاوِرِ لِلْبَيْتِ، لَقَدْ أَدْرَكَ سَعِيدٌ أَنَّ النَّتِيجَةَ سَتَكُونُ مُحْزِنَةً، لِذَلِكَ اِنْطَلَقَ يَجْرِي بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ عَلَّهُ يَسْتَطِيعُ تَخْلِيصَهُ مِنَ الْمَوْتِ، فَتَوَجَّهَ إِلَى الْبَيْتِ وَحَمَلَ الْبُنْدُقِيَّةَ وَخَرَجَ نَحْوَ الْوَادِي، فَوَجَدَ الْغُرَابَيْنِ قَدْ قَتَلاَ الْحَمَامَ وَمَضَيَا يُمَزِّقَانِ جَسَدَهُ، إِثْرَهَا صَوَّبَ سَعِيدٌ نَحْوَهُمَا الْبُنْدُقِيَّةَ وَأَرْدَاهُمَا قَتِيلَيْنِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ وَحَمَلَ جُثَّةَ الْحَمَامِ وَقَلْبُهُ يَتَقَطَّعُ أَلَمًا وَحُزْنًا وَالدُّمُوعُ تَهْطِلُ مِنْ عَيْنَيْهِ كَوَابِلٍ.

حَمَلَهُ إِلَى أُسْرَتِهِ مَيِّتًا، فَعَمَّ الْحُزْنُ الْبَيْتَ، وَبَكَى الصِّغَارُ عَلَى مَوْتِ حَمَامِهِمْ الْوَدِيعِ الْمُدَلَّلِ، لَكِنَّ سَعِيدًا وَمِنْ أَجْلِ حُبِّهِ لَهُ حَفَرَ لَهُ قَبْرًا بِجَانِبِ الْبَيْتِ وَدَفَنَهُ كَمَا يُدْفَنُ الإِنْسَانُ، وَكَتَبَ عَلَى شَاهِدِهِ: «هُنَا يَرْقُدُ الْحَمَامُ الْوَفِيُّ».

مَاتَ الْحَمَامُ وَأُمْنِيَّةُ سَعِيدٍ لَمْ تَكْتَمِلْ بَعْدُ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ اِكْتَشَفَ أَنَّهُ عِنْدَمَا يَتَوَفَّرُ الْحُبُّ وَالصِّدْقُ فِي الْبَحْثِ وَالعَمَلِ يَتَحَقَّقُ الْمُسْتَحِيلُ.

سَعِيدٌ وَالْحَمَامُ الزَّاجِلُ

قِصَّةٌ بِقَلَمِ وَرِيشَةِ: الأخضر بن هدوقة

ص.ب 49 المنصورة برج بوعريريج

الهاتف 32 - 07 - 65 (05)

كَلِمَةُ الكَاتِبِ:

عِنْدَمَا يَتَوَفَّرُ عُنْصُرُ الحُبِّ وَالصِّدْقِ فِي الْبَحْثِ وَالعَمَلِ يتَحَقَّقُ المُسْتَحِيلُ.

- الكاتب -

دار الهدى
عين مليلة * الجزائر